الحواس وإفزاعها ، وظلت البلاغة مولعة بالتنظير لتفكير يجعل الأشياء قريبة وبعيدة ، موجودة ومعدومة ، كيما يستقيم لديهم هذا الفزع ، وألفت البلاغة فى شواهدها وتأملاتها الإشادة بتأليف السحر ، وأعجبت البلاغة بالتضاد بين الاشياء إلى أبعد مدى ، وأخذ التفكير البلاغى يشرع لما طرأ على الشعر العربى منذ القرن الثالث من المباغتة ، وأى شىء أكثر إثارة للفزع من أن يكون المصلوب المقتول حيا عاشقا ، وأى شىء أكثر إفزاعا من أن يكون الدمع الأليم لؤلؤا سارا . كان الأستاذ يتهم هذا الشعر كله بالكذب ، وهو يستعمل لفظ الكذب مرادفا للبهرج ومرادفا للفزع ، ولكن العقاد محق فيما نرى حين يلاحظ أن بعض الشعر يهتم بروح الوقائع الخارقة والحوادث الشاذة فى معارض ظاهر أمرها وقائع عادية أو حوادث مألوفة ، كان العقاد يبحث عن جماليات مختلفة اختلافا جذريا عن جماليات البلاغة ، وكانت انطباعات رائد مثقف واسع الإحاطة بالشعر الإنجليزى والنقد الأدبى الحديث انطباعات غريبة الوقع على عقول كثيرين .

لم يكن العقاد راضيا عما قد يبدو فى بعض النماذج وبعض التفكير البلاغى من نزوات هندسية ، وحنين غريب إلى الشكل العارى من الطابع الذاتى وإلحاح على تجنب العلاقات التى ترتبط بأوضاع الحياة العادية .

(٦)

استوقفنا العقاد عند نماذج غير قليلة لأنه كان يعلم أن الشعر الردىء أكثر مما يتصور جمهور القراء ، ولأنه يعلم أن هذا الجمهور محتاج الى التنبيه ، فالشعر الردىء عند العقاد يضر بصحة النفس ، ومن ثم كانت محاربته واجبا على من يحفل بشئون الحياة ذاتها ، وقد نال شوقى نصيبا غير قليل من عناية العقاد ، واتهم العقاد كثيرا بأنه متحيز ، ومن الأهمية بمكان أن نترجم العقاد هنا الى لغة أوضح ، قال العقاد : فى أحمد شوقى ارتفع شعر الصنعة الى ذروته العليا . وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله ، منه ماهو قريب إلى الطبيعة ولكنه منقول من القسط الشائع بين الناس ، فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ، لأنه أشبه بالوجوه المستعارة التى فيها كل مافى وجوه الناس ، وليس فيها وجه إنسان .

ومن هذه الصنعة كانت صنعة شوقى فى جميع شعره ، فلو قرأته كله ، وحاولت أن